# الألم والشخصية

ما أقوى تأثير الألم فى الطبائع . وما أبلغه فى تربية الشخصية . وتقوية الإرادة .

حظرت ببالى علاقة الألم بتكوين الأشخاص . حينما رأيت شاباً مستهتراً لا يرى الحياة إلا لذة ساعات . وعيش لحظات . وكان المال يجرى بين يديه . والفراغ والشباب ملء برديه . فظل سادراً فى غيه ، مبالغاً فى استهتاره . يقضى أياماً خاملة رتيبه لا تثمر خيراً لبلاده . ولا تترك أثراً صالحاً لنفسه ووطنه . يمضيها لا يأسو على شىء فاته . ولا يرجو شيئاً من غده . وظل القدر يمهله ويمهله ثم فتح عليه جعبة سهامه . وأخذ يرميه منهـــا . واحداً تلو الآخر . حتى تفتحت عينه على حقائق حياته المرة ، وجنباته مثخنة بالجراح . وفقد والديه وهما مصدر ماله ومهبط آماله . وتركاه فى الحياة صفر اليدين . ليتخلى عنه الرفاق . ويجد نفسه مرغماً على أن يطرق أبواب الحياة بنفسه . فاستعصى عليه الكثير منها . إلا أن الحاجة ظلت تدفعه . والحرمان يستحثه . حتى أكرهاه على البطولة التى كان يفتقرها فى أيام لهوه . واستطاع أن يلج الحياة من أبوابها الواسعة . وتحول الشاب الماجن ـــ وقد صهرته تجارب الحياة وقسوتها ـــ رجلا صلب الإرادة . قوى العزيمة يثق بنفسه التى رأت الحياة فى لونيها . وأصبحت له رسالة يسعى جاهداً لتحقيقها .

وأدركت أن الآلام لا تخلو من وجه جميل ، وناحية رائعة . وانها عنصر هام من عناصر وجود الإنسان . وأدركت أهمية الألم فوق أثره يوم عرفت أن اللذة لا تسمو قيمتها إلا إذا سبقها الألم . وأن حلو الحياة لا يعرف إلا بمرها . وأن سعادة الإنسان لا تتصور إلا بشقائه . وعرفت أن الألم ما لم تصل ضرباته إلى درجة التحطيم . وما لم تبلغ قسوته درجة قتل الإرادة وفساد العزيمة . يعتبر أهم ركن من أركان تربية النفس وتقوية الشخصية . .

وتستطيع أن تقارن بين شخص ورث المجد والمال لم يبذل فيهما جهداً . وشخص كافح وناضل وتألم . فأسس مجده بتعبه وجده ولم يدخر فى سبيله سعياً . وتستطيع أن تقارن بين العصاميين الذين أسسوا حياتهم بجدهم وعرق جباههم . وبين هؤلاء الذين ولدوا وفى أفواههم ملاعق من الذهب . . . واتضحت هـــذه الحقيقة حينما أخذت أقارن بين إنتاج الأديب فى ظلال الثقافة والحرمان . وبين إنتاجه فى ظلال الترف والنعيم . فعرفت أن أجمل شعر قاله حافظ يوم كان منبعه الفاقة : ومصدره الحرمان ، فلما عرف النعمة والترف فى مكتبه ( بدار الكتب ) جف منبعه ونضب معينه . وعلمت أن أروع أدب أنتجه المنفلوطى هو ما كتبه بدموعه يوم ودع زوجه إلى مقرها الأخير . وأن أجمل ما كتب الزيات يوم رثى ( رجاءه ) فى وفاته .

والأديب العالمى ( مكسيم جوركى ) كان مثالا رائعاً . للأديب الملهم الموفق يوم كان يرزح تحت قسوة القياصرة فى روسيا فلما ذاق النعيم فى ظلال البلشفية خمدت شعلة العبقرية . وانطفأ مصباح الأدب . فلم تتأجج عبقريته إلا فى رحاب الحرمان .

إن النعمة تفسد الطبيعة البشرية . فلا بد لها من شقاء يصلحها . والحديد قد يفسد فلا بد له من نار تذيبه . وكذلك النفوس يطغيها النعيم . ويصدئها الترف . لذلك لا تظهر معادن الناس إلا عند الشدائد . ولا تعرف حقيقتها إلا فى المحن . وكان صادقاً من قال : « أعرف الناس بالناس . الممرضات فى المستشفيات » فهن يرين الناس فى الكوارث فيعرفن كيف يحتملون المتاعب وكيف يجزعون منها ، وكيف يصبرون ويتجزعون . أما فى الخارج فالجميع يخفى مظهرهم مخبرهم . وكلهم أبطال حيث لا ميـــدان ؛ وقد كان أحد قواد الحرب من الألمان يخاطب جنوده وقد ظهرت بوادر الهزيمة قائلا : « إن البطولة فى النصر شىء هين . ولكن حقائق البطولة لا تظهر إلا فى ظلال الهزيمة »

ولا شك أن أصلب الناس عوداً عند الشدائد هم من تعودوها . وأثبتهم قلبا عند النوازل هم من مارسوها .

**أحمد اللباد**